مِصْرٌ : مَقبَرَةُ الغُزاة

obeikandl.com

المراجع الاجنبية

Pierre Jouguet : Précis d' Histoire d' Egypte
Bogunil Goltz : Provincial en Egypte
A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire.
James Breasted : The Origins of Civilisation
J. *de Morgan* : Recherches sur les origines de l'Egypte.
A. Moret : Le Nil et la Civilisation Egyptienne
Gordon Childe : L'Orient Prèhistorique
André Maurois : Histoire d'Angleterre
Lavisse : Histoire de France
Alexandre Moret : L'Egypte Pharaonique
Gabriel Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne
Pierre Jouguet : L'Egypte Alexandrine
Victor Chapot : L'Egypte Roumaine
John Knox : The First Blast of the Trumpet against the Monstruous Regiment of Women
Charles Roux : Bonaparte Governer of Egypt
Berthier : Relation des Compagnes du General Bonaparte en Egypte et en Syrie
De la Jonquière : L'Expedi tion d'Egypte
Ninet : Orabi Pacha
Broadly : How We defended Orabi

والمراجع المشار اليها فى باب « أهداف العمل لمصر »

المراجع العربية

عبد القادر حمزة : على هامش التاريخ المصرى
هند اسكندر عمون : تاريخ مصر
عزيز خانكى : اسكندر الأكبر
ابراهيم سيف الدين : مصر فى العصور القديمة
الجوتى

فى مصر خرافة أثيمة تزعم ان المصريين قد استعمرتهم شعوب عديدة غزوا مصر من الشرق والغرب والجنوب . وأن مصر قد ظلت منذ فجر التاريخ « مستعمرة » لتلك الشعوب التى غزتها على التوالى . . . !

وهذه الخرافة — التى سنثبت الآن أنها لا سند لها من التاريخ بل أن التاريخ ينطق باختلاقها — قد روجها فى مصر نفر من ضعاف النفوس الذين تلقوا بعض فتات المستعمرين الأوروبيين فى القرن الماضى والقرن الذى نعيش فيه ، ولا شك أنها ذاعت فى فترة الضعف التى عانتها مصر فى عهد الخديوى توفيق وأوائل عهد عباس لأنه لا يعقل أن تذيع مثل هذه الخرافة فى عهد كعهد محمد على كانت ترتعد أثناءه أوروبا فرقا من انتصارات الجيش المصرى . الذى كان عماده الفلاح المصرى الصميم .

وهذه الخرافة التى تزعم أن هذا الفلاح المصرى قد قبل — دائماً — الضيم ورضى بذل الاستعمار كانت تظهر فى العهود التى تصاب أثناءها مصر بضعف طارىء . فقد قيل فى خطاب خاص أرسل فى القرن الثالث قبل الميلاد « لا تظن أنى فلاح مصرى »[1] .

ولا يزال بعض الجهلاء بتاريخ مصر . وبحقيقة قيمة هذا الفلاح المصرى يعتبرون أن الانتساب اليه سبة ! بعد أن نجحت سياسة الاستعمار فى إيجاد طبقة « بيروقراطية » بين الموظفين الذين يقيمون فى المدن ويتناولون مرتباتهم من كد ذلك الفلاح ويخيل إلى بعضهم — لجهلهم — أن القيام بعلاجه كأطباء أو تصميم الترع التى تروى أرضه كمهندسين . أو تعليم أبنائه كمدرسين . أو التحقيق معه عند اتهامه كضباط إنما هو منة وفضل وليس أول واجب من واجباتهم كخدام لذلك الفلاح ، الخلية

(١) Pierre Jouguet Prècis d' Histoire d' Egypte P. 393

ولى للشعب المصرى ، وبعد أن نجحت نفس السياسة فى إيجاد طبقة « بورجوازيه » من الأجانب المتمصرين . أو المصريين الوصوليين تعيش هى الأخرى فى المدن كالطفيليات . تحميها التشريعات المختلفة التى لاتحسب حساباً لمرض ذلك الفلاح . أو شيخوخته ، أو اشغاله . فيشقى هو لكى تسعد تلك الفئات الكسلى .

وقيل مثل هذا الكلام الأثيم عن المصرى بعد ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٥٣ فى كتاب نشر رحالة ألمانى زار مصر إذ ذاك فزعم « أن المصرى همجى ونصف متوحش . وعنيد ويجب لترويضه وتمدينه استخدام سوط من حديد » (١) .

ورغم هذا الافتراء الذى نسب إلى المصرى فقد أثبت على مدى التاريخ أنه أول معلم ألقى على العالم دروس الحضارة الأولى . وأول واضع لأسس الأخلاق التى لاتزال أرقى شعوب العالم الحالى تعتبرها مثلا علياً تنشدها فيصعب تحقيقها ، وأنه لم يمكن غازيا لوطنه من أن يفرض ارادته عليه . أو يسلبه حريته وسيادته بل أفنى جميع الغزاة الذين مروا به فى مصريته التى اعتز بها دائماً .

١ — أن مصر — دون سائر دول العالم التى تعتبر متمدينة فى العصر الحالى — قد نشأت فيها مدنية أصيلة قبل أن تنشأ فى غيرها ونمت تلك المدنية وازدهرت وانتشرت منها فى أرجاء العالم الأخرى التى كان الآدميون يتحركون أثناءها فى الغابات إلى جانب الحيوانات وهم على الفطرة . هذا أمر أجمع عليه كافة المؤرخين الذين توفروا على دراسة تاريخ

---

(١) Bogumil Goltz : Provincial d'Egypte من تلخص لجريدة Le Progrès Egyptien الصادرة فى ١١ ابريل سنة ١٩٤٣

مصر القديم فلا شك أن المصريين هم شعب له كيانه الخاص . ومقوماته « الأثنولوجيـة » المميزة له دون سائر الشعوب الأخرى التى مرت مثله فى عصور ماقبل التاريخ ، أى العصور السابقة على استخدام الانسان للمعادن . وهى عصر الحجر غير المصقول . وعصر الحجر المصقول وعصر الانتقال من استخدام الحجر إلى استخدام المعدن . والشعوب التى مرت مثله — ومعه — فى تلك العصور هى الشعب الـكلدانى الذى كان يقطن وادى دجلة والفرات . والشعب الذى كان يقطن وادى نهر الهندوس فى الهند .

وقد دلت الآثار التى وجدت فى مصر من العصر الحجرى على فساد الزعم بأن الحضارة المصرية التى نشأت فى العصر الحجرى هى حضارة كلدانية انتقلت إلى مصر بغزو الـكلدانيين لها . كما دلت تلك الآثار أن المصريين قد انتقلوا من العصر الحجرى — أى عصر قبل التاريخ — إلى العصر المعدنى قبل غيرهم من شعوب العالم أجمع (١) .

ومن الثابت أن أول مدنيتين ازدهرتا فى التاريخ بين المصريين والـكلدانيين . ولـكن مصر تحتل مكان الصدارة بالنسبة لقدم المدنية المصرية وبالنسبة لعدد الآثار التى خلفتها ولجمالها . ففى مصر تبدو شخصية المصرى منذ أقدم عصور التاريخ ويمكن للمؤرخ أن يتتبع تطور جسمه وروحه وآثاره الإجتماعية والسياسية والعقلية والفنية تطوراً متسقاً متسلسلا بدون انقطاع إلى يومنا وهى ظاهرة لامثيل لها فى تاريخ أية مدنية أخرى . ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية

وقد ظهر الإنسان فى مصر وفى الأقطار المجاورة لها من شمال أفريقيا

---

(١) عبد القادر حمزه « على هامش التاريخ المصرى القديم » الجزء الأول ص٤٢

قبل أن يظهر فى غيرها من بقاع العالم . ففى الوقت الذى كان الثلج يغمر أوروبا كانت الصحراء الكبرى الحالية بقاعا تغمرها المياه وتغطيها الحشائش وتجوب فيها الحيوانات وقد وجدت حول الجزائر وفى جفصه على مقربة من تونس آثار عرف عمرها من عدد الطبقات التى تراكمت فوقها . وهذه الآثار عبارة عن أدوات وأسلحة لشعب من الصيادين الرحّل كما أن صور الحيوانات التى كانوا يصطادونها وجدت محفورة على الجدران فى بعض جهات الجزائر والسودان المصرى . وقد وصلوا إلى حافة المنخفض الذى كان النيل يجاهد لكى يحفر لنفسه ممراً فيه ، وفى العصر الثلجى الأول لأوروبا تمكنت مياه أنهر وسط أفريقيا من أن تجد منفذاً بين أحجار الجرانيت فى النوبة وأن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الثلجى الثانى لأوروبا اجتذب وادى النيل صيادى المناطق المجاورة بمائه ونباتاته وحيواناته[١]

ومن الثابت أيضاً أن المصريين قد انتقلوا فجأة من العصر الحجرى الأول palœolithic إلى العصر الحجرى المهذب neolithic الذى يحسن أن يسمى العصر النحاسى Chalcolithic لأن النحاس كان قد بدأ استعماله أثناءه فلم يعثر على آثار تدل على أن المصريين قد تدرجوا مع العصر الحجرى بدرجاته المختلفة كما تدرجت شعوب أخرى . وقد اتضح من الحفائر العميقة فى فم الدلتا وجود أوانى خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً . وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤن قد عاشوا هناك منذ ستة عشر ألف عام[٢] ومن

(١) A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire p. 117, 118

(٢) James Breasted : The Origins of Civilisation (reprinted from the Scientific Monthly) November 1919 p. 307

المحتمل أنهم الشعب الذى عاش بين عصر رجال الصحراء الحجرى والعصر النحاسى الذى جاء بعده . وهو العصر الذى يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد (١)

ومن الثابت أيضاً أنه لا توجد آثار تدل على وجود الإنسان فى سوريا أو بين نهرى دجله والفرات تعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وفى ذلك التاريخ كان المصريون قد دخلوا باب تاريخهم الخاص وثبتت أقدامهم فيه ولذلك فمن الحكمة أن نعزو تقدم المصريين الأوائل إلى عبقريتهم الخاصة وإلى الظروف الإستثنائية التى أتاحها لهم وادى النيل ولا يوجد دليل على أن ذلك التقدم يعود الفضل فيه إلى أجانب عن أولئك المصريين كانوا أكثر منهم تقدما أو رقياً (٢)

ولما كانت بعض أجسام المصريين الذين عاشوا فى العصر النحاسي قد صانتها القبور من العطب فقد تبين من فحصها أن الجنس المصرى يتميز باعتدال القامة ونحافة البنية وطول الوجه وضيق الجمجمة وسواد العينين والشعر الناعم الملمس أى الذى ليس « أكرتاً » وليس هناك أى أثر للجنس الزنجى فى الجثث التى وجدت من ذلك العصر النحاسى بل على العكس كل شىء يدل على أن هناك وجه شبه شديد أو قرابة بين الجنس الذى يسكن جنوب أوروبا و بين أولئك المصريين وهو الجنس الذى يسميه العلامة سيرجى Sergi « الجنس الأبيض المتوسط » (٣)

ولعل أحسن رد على مازعمه بعضهم من أن بعض أوجه الشبه التى بين آثار الكلدانيين التى من العصر الحجرى وآثار المصريين التى من نفس

(١) J. De Morgan : Recherches sur les origines de l'Egypte p. 100

(٢) A. Moret, G. Davy : From Tribe to Empire o. 122

(٣) James H. Breasted : The Origins of Civilisation p. 428

العصر تدل على أن مصر قد اقتبست من حضارة الكلدانيين هو ماذكره أحد كبار الثقاة فى التاريخ المصرى القديم من أن جميع المكتشفات والابتكارات الهامة مصرية صميمة وليس هناك ماينبيء بأن مصر مدينة لآسيا بتلك الحضارة بل من الممكن تفسير ذلك الشبه بين حضارة مصر وحضارة الكلدانيين بأنه وقت انتقال الحضارة المصرية الى الخارج (١)

فاذا قابلنا بين ما كانت عليه مصر فى عصر ماقبل التاريخ وما كانت عليه انجلترا لوجدنا أن الآثار التى تعود الى ذلك العصر والتى لاتزال موجوده بانجلترا تثبت أن مدنيتين مختلفتين قد أثرتا فى أهل انجلترا إحداهما مدنية « الأيبيريين » التى نظن أنهم قدموا الى انجلتره من اسبانيا وهى مدنية فطرية . وسواء كانت تلك المدنية اسبانية أم لا فلا شك أنها صادره من البحر الأبيض المتوسط . فالمسافر القادم من جزيرة مالطة يدهشه عند وصوله الى مدينة «ستونهنج» الانجليزية عظم الشبه بين آثار عصر ماقبل التاريخ فى مالطة ومثيلاتها فى انجلترا . وهذه المدنية قد انتقلت الى انجلترا بواسطة المهاجرين الذين لم تنقطع صلتهم بالقارة الأوربية بسبب التجار الذين كانوا يحضرون الى انجلترا للحصول على المعادن ويدفعون ثمنها منتجات الشرق (٢)

٢ — وقد انتهى العصر الحجرى فى مصر — وكان لايزال مستمراً فى غيرها كما قلنا — حوالى عام ٣٢٠٠ قبل ميلاد المسيح وبدأ تاريخ الأسر المصرية التى توالت على حكم مصر ، وليس هنا محل الكلام على الانتصارات الحربية التى قام بها المصريون فى مجد تاريخهم ولا على

---

(١) Gordon Childe : L'Orient Prèhistorique

(٢) André Maurois : Histoire d'Anglettrre P. 17

انتباههم الى الحدود الطبيعية التى يجب أن تمتد الى مصر شمالا وشرقا وجنوباً . فمحل هذا باب آخر من أبواب هذا الكتاب وإنما أكتفى هنا للتدليل على مبلغ رقى المصرى فى بدء تاريخه ، وعلى ابتكاره قواعد الاخلاق الفاضلة وأسس المعاملات الكريمة قبل أن تخطر لشعب اخر أن أذكر فقرة منقولة عن كتاب « الموتى » التى كان يتضمن فلسفة المصريين الأوائل وطريقة محاسبة الموتى ، وهو كتاب ذاع بين عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة التى انتهت فى عام ١٠٨٥ قبل الميلاد . إذ جاء على لسان الميت وهو يخاطب قضاته الذين كانت تذهب العقيدة المصرية القديمة الى أنهم سيتولون محاسبته على شكل محكمة .

« إننى لم أقارف الشر ولم أعتد ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدراً ولم أكذب ولم أسل دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أتلف أرضاً مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجنى إلى غير الحق ، ولم أزن ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ولم أسىء الظن بالملك ولا بأبى ولم ألوث الماء ولم أحمل سيداً على أن يسىء إلى عبده ، ولم أحلف كاذباً ، ولم أغش فى الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع . ولم أرد ماء حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة رى على غيرى ، ولم أطفىء ناراً يجب أن تشعل . »[1]

وفى نفس « كتاب الموتى » فقرة أخرى يتوجه بها الميت إلى قضاته يقول فيها .

« لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالعدل ونشرت الافراح فى كل صوب

---

(١) Moret: Le Nil et la Civilisation ترجمة عبد القادر حمزه باشا فى كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » الجزء الأول ص ١٠٣

وأطعمت الجياع ، وسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، ومددت للغرقى يد النجاة »[١]

وهذا الفهم النبيل لقواعد الاخلاق . وهذا التحديد الرائع لأسس المعاملات . يقطعان فى الدلالة على ماوصل إليه المصريون الأوائل من رقى ، وعلى ماامتازوا به من سمو على باقى شعوب الأرض فى ابتكار المقدمات الصحيحة للحضارة الانسانية الأولى ، ويكفى هنا للرد على الذين يفترون على المصريين ، ويشوهون تاريخهم وينكرون فضلهم ، أن أذكر كلمة العلامة المؤرخ « لافيس » عضو الأكاديمى الفرنسية إذ قرر بصريح العبارة «ان مصر كانت المعلمة الأولى للانسانية »[٢]

٣ — وأول غزو أجنبى امتحنت فيه مناعة المصريين ومدى اعتزازهم باستقلالهم هو غزو « الهكسوس » و « هك » فى اللغة المصرية القديمة تعنى « حاكم » و « سوس » تعنى البلاد الأجنبية فالهكسوس هم الحكام الذين من البلاد الأجنبية . وهم ينتمون إلى جنس سامى زحفت عليهم الشعوب الآرية من شرق بحر قزوين فاندفع نحو مصر . وقد فنوا فى القومية المصرية فقلدوا ملوك مصر الفراعنة فى أسمائهم وعاداتهم ولغاتهم وديانتهم وأطلقوا على أنفسهم اسم « أبناء رع » . ورغم ذلك كله ظل المصريون يكرهونهم ويذكرون دائماً أنهم غزاة لوطنهم فكانوا يصفونهم بالقذرين وانتهز أمراء طيبة وعلى رأسهم أحمس الأول أول فرصة سانحة فطردوهم من مصر وثأروا منهم فدمروا ومحوا آثارهم لكى لا تبقى شاهدة بهذا المساس الطارىء بسيادة مصر

---

(١) هند اسكندر عمون — « تاريخ مصر » ص ٦٤

(٢) Lavisse : Histoire de France P. 19

وسرعان ما استردت مصر عظمتها عقب ذلك مباشرة فنشأت الدولة الحديثة (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ قبل الميلاد) وفيها قام تحوتمس الثالث بتأسيس أول امبراطورية عرفها التاريخ فوصل إلى جبل طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا والشلال الخامس جنوبا . كما أدخل ليبيا فى الحدود المصرية الغربية وفى خلال حكم الأسر الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين لعبت «طيبة» دور عاصمة العالم (١)

٤ — وثانى غزو امتحنت فيه مناعة المصريين هو غزو الليبيين لمصر . فقد بقوا فى مصر قرنين ولكنهم لم يؤثروا أدنى تأثير فى قومية المصريين واعتزازهم بمصريتهم . بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الفرعونية . وعبدوا آلهـــة المصريين وقدموا لها القرابين

٥ — وغزا الأشوريون مصر . ولكن بسمتيك الأول وهو ابن أحد أمراء الأشوريين كان قد فنى فى القومية المصرية إلى حد أنه انتقض على الأشوريين وأحيى الآداب المصرية القديمة و بنى المعابد على طراز معابد الدولة القديمة . وذلك أثناء حكم الأسرة السادسة والعشرين .

٦ — وظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبى عند غزو الفرس بقيادة قمبيز لمصر فقد قاومه بسمتيك الثالث مقاومة شديدة ورغم أن قمبيز تغلب عليه فقد ولاه على مصر من قبله ولكن بسمتيك تآمر على قمبيز فأعدمه . وقد فنى الفرس ـ كما فنى الهكسوس والليبيون والأشيريون ـ فى القومية المصرية فتلقبوا بألقاب المصريين وعبدوا الآلهة المصرية ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا قلوب المصريين فقاموا بعدة ثورات محاولين

(١) Gabriel Hanotaux : Histoire de la nation Egyptienne

إخراج الفرس من مصر وتطهير أرض الوطن من الغزاة إلى أن وفقوا فى طرد الفرس أثناء حكم العاهل الفارسى دارا الثانى

فاذا قابلنا بين ما فعلته مصر أثناء ذلك العصر – بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد – وبين ما فعلته انجلترا لوجدنا الفرق شاسعاً . فقد ظلت انجلترا خلال ذينك القرنين تتلقى موجات متتابعة من قبائل رعاة الأغنام الذين كانوا يهوون الحروب والغزوات فحلوا فى انجلترا محل « الإيبيريين » وتلك القبائل كانت تنتمى إلى شعب «سيلتى» كان يحتل مساحات واسعة من وادى الدانوب وشمال الألب . وقد فرق المؤرخون بين موجتين رئيستين من موجات ذلك الغزو البطىء لانجلتره . أولاهما غزوة ال «جواديل» Goidels أو «الجيل» Gaels الذين أعطوا لغتهم « الجيلية » لأهل أرلنده وأهالى المناطق العليا فى « اسكتلنده » والثانية غزوه « البريتون » Bretons الذين أصبحت لغتهم فيما بعد لغة الجاليين والبريتونيين فى فرنسا . أما فى انجلتره فقد محا الغزو الألمانى لها فيما بعد اللغة السيلتية ولم تبق إلا بضع كلمات تستخدم فى الحياة المنزلية احتفظت بها النساء السيلتيات اللاتى تزوجن من الغزاة الالمان ومنها اسم « لندن » الذى يقابله فى اللاتينية Lundinium ويبدو أنه اسم «سيلتى» يشبه اسم القرية الفرنسية « لوندونيير » وقد ثبت ان أول قطعة نقود سكت فى انجلتره نقش عليها رأس «ابولون» مما يرمز الى أن مصدر المدنية التى ظهرت فى انجلتره خلال ذينك القرنين من البحر الأبيض المتوسط .

والباحث فى المدنية «السيلتية» يتبين أوجه الشبه العظيمة بينها وبين مدنية «البراهما» فى الهند . فرجال الدين والكهنة يكونون أشرف طبقة فى

الهيئة الاجتماعية . وكثير من المعتقدات الدينية السيلتية تذكر الباحث بالشرق . فالاضراب عن تناول الطعام مددا طويلة الذى لايزال شائعا فى أرلنده هو نفس ما يزاوله الهندوس ويسمونه « دارنا » dharna ويقضى بأن يصوم البراهمى وهو واقف أمام باب خصمه حتى يحصل على الترضية التى يطلبها .

ولاتزال آثار العهد السيلتى بادية فى تكوين انجلتره العصرية الى اليوم ففى القرن العشرين نجد أن مجالس الوزراء والجيوش يرأسها ويقودها « سيلتيون » من اسكتلنده أو ارلنده (١)

٧ — وعادت القومية المصرية تؤثر فى غاز من أكبر غزاة التاريخ هو اسكندر الأكبر المقدونى . فقد زار واحة سيوه عقب دخوله الى مصر وأبى كبير الكهنة إلا أن يحييه باسم « ابن آمون » فقبل اسكندر هذا الاسم واستبشر به الى حد أنه أوصى أن يدفن بعد موته فى واحة سيوه الى جانب أبيه المعبود آمون . وبلغ من تأثر اسكندر بعظمة مصر أن فكر فى نقل عاصمة ملكه من مدينة بيللا بمقدونيا الى الاسكندرية ولم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اضطراره الى مغادرة مصر لمحاربة الفرس وعدم اتمام بناء الاسكندرية (٢)

ولما تولى البطالمة حكم مصر بعد اسكندر بدأوا بالابتعاد عن المصريين وعلموا أبناءهم تعليما يونانياً ولكن سرعان ماأثرت البيئة المصرية فيهم . ففنوا ، كمن سبقهم من الغزاة ، فى القومية المصرية وكثر التزاوج بينهم وبين المصريين وأخذ البطالمة يبالغون فى التقرب الى المصريين ومع ذلك فان

(١) Mauroise: Histoire d'Angleterre P.19—24

(٢) عزيز خانكى: « اسكندر الاكبر » ص ٣٤ و ٣٥ وابراهيم سيف الدين

المصريين لم ينفكوا يحدون على المغتصبين اليونانيين فثاروا عليهم وقد ترتب على موقف المصريين العنيد من البطالمة خلال القرن الثانى قبل الميلاد واثناء حكم بطليموس الرابع و بطليموس الخامس تداعى الامبراطورية التى أسسها اسكندر الاكبر (١)

٨ — فى كل هذه المراحل التاريخية السابقة التى استغرقت أكثر من ثلاثين قرنا لم يتمكن مستعمر أوغاز من أن يقهر الروح المصرية أو يمس بصميم القومية المصرية . الى أن غزا الرومان مصر فى عهد اكتافيوس بعد أن إنتصر على انطونيوس فى معركة اكتيوم البحرية و بعد أن تغلب على كليوباتره آخر ملوك البطالمة برأفى مصر نفسها . فمن ذلك التاريخ — عام ٣٠ قبل الميلاد — فقدت مصر سيادتها وأصبحت جزءاً من الامبراطورية الرومانية ومركزا من أغنى المراكز الاقتصادية وأنشطها . ومن أخصب المراكز الثقافية وأكثرها حيوية فى تلك الامبراطورية (٢)

ومع ذلك فاذا كان الرومان قد غزوا مصر عام ٣٠ قبل الميلاد فأفقدوها سيادتها التى احتفظت بها على مدى عصور التاريخ السابقة فقد غزوا انجلتره فى نفس ذلك الوقت . وعلى وجه الدقة فى عام ٥٥ قبل الميلاد فى أيام حكم قيصر فلما لم يوفق فى ذلك العام التوفيق الذى كان يرجوه عاد فى العام التالى أى فى عام ٥٤ قبل الميلاد واستعدى بعض القبائل السيلتية على البعض الآخر و بذلك توصل إلى غزو انجلتره وفرض عليها الضريبة المستحقة لروما وتأثرت بلاد «الجول» بانجلتره بالروح الرومانية . وتدوولت العملة الرومانية

---

(١) Pierre Jouguet : L'Egypte Alexandrine الجزء الثالث من سلسلة Histoire de la nation Egyptienne لجبريل هانوتو

(٢) Victor Chapot : L'Egypte Roumaine من السلسلة المشار اليها فى المرجع السابق

فى انجلترة . وكثر عدد القراء الذين كانوا يقرأون الشعر الرومانى . ولا يزال أثر العصر الرومانى ظاهراً الى اليوم فى انجلترة فمعظم المدن الانجليزية التى تنتهى أسماؤها بـ «شستر» Chester أو «سستر» Cester كانت أثناء الغزو الرومانى ثكنات رومانية Castra . ولم ينقض طويل وقت على الغزو الرومانى حتى انتشرت المنازل المبنية على الطراز الرومانى فى جنوب انجلترة وانتشر معها النقش الرومانى على الجدران ، والأرض المنقوشة برموز تشير الى التاريخ الرومانى و بلغ الأمر الى حد أن الرومان بنوا فى «باث» مدينة رومانية بحتة من مدن المياه . وقد تعود « السيلتيون » على تلك الحياة الرومانية . أو على الأقل تعود عليها جانب منهم . وقد يعود السبب فى ذلك الى أن الرومانيين لم يكرهوا الشعب الإنجليزى على تقليدهم بل أن الفرد الانجليزى كان يقبل مختاراً على التأثر بالمدنية الرومانية لما كانت تمتاز على مدنيته الخاصة (١) .

٩ — وقد ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاماً . انتهت بغزو العرب لمصر فى عام ٦٤٠ ميلادية . فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التاريخية و يفنون الغزاة الجدد فى قوميتهم . إذ ظلت اللغة القبطية رغم الغزو العربى لغة الدواوين الى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الملقب بأبى العباس أى أنها ظلت كذلك خمسة وأربعين عاما وتكررت ثورات المصريين فى خلال حكم العرب فكان الخلفاء يحترمون ارادتهم وينفذونها

ا — فقد شكوا أسامة بن يزيد . عامل الخراج فى عهد خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) فعزله ولم يكتف بذلك بل أمر بارساله الى

---

(١) A. Maurois : Histoire d'Angleterre P. 29

دمشق مكبلا بالحديد . مسمرة يداه وقدماه بأطواق من خشب ولكن أسامه مات فى الطريق .

ب — وثار المصريون فى عهد خلافة يزيد الثانى بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤) الذى ولّى على مصر حنظلة بن صفوان . وكان سبب الثورة أنه حطم الآثار المصرية . وامتدت الثورة بين بلبيس ودمياط .

ج — وعادوا الى الثورة فى عهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) بسبب نفس الوالى حنظلة بن صفوان واستجاب الخليفة لمطالبهم فعزله وولّى مكانه حفص بن الوليد .

د — وعادوا الى الثورة فى عهد مروان الثانى بن محمد (٧٤٤ — ٧٥٠) لأنه ولّى حسان بن عتاهية على مصر وطالبوا بعودة حفص وركبوا الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحصروا حسانا الوالى فى داره ثم طردوه من مصر وولّوا حفصا للمرة الثالثة وعاد فى تلك الأثناء حنظلة بن صفوان من افريقيا ونزل الجيزة فكتب مروان الى مصر يأمر بتوليته وعندئذ منعه المصريون من الاقامة فى الفسطاط .

(هـ) وثاروا بعد إنشاء الدولة العباسية فى عهد خلافة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ — ١٧٥) فجمعوا جموعهم فى سخا وتغلبوا مرتين على الجيش الذى وجه لاخضاعهم والى مصر إذ ذاك يزيد بن حاتم وظلت ثورتهم تخبو وتتقد حتى بعد أن عين موسى بن على والياً على مصر

(و) وفى عهد خلافة المهدى بن المنصور (٧٧٥ — ٧٨٥) انتهز المصريون فرصة ثورة دحية بن المعصب الأموى على العباسيين فانضموا إلى دحية

ولما توجه موسى بن مصعب والى مصر إذ ذاك إلى الصعيد لاخضاعهم تغلبوا عليه وقتلوه .

(ز) ظلت مصر مسيحية . وظل المصريون يرفضون أن يجعلوا دين الغزاة العرب ديناً لهم إلى عهد عبد الله المأمون الرشيد (٨١٣ ـ ٨٣٣) وقد زار الخليفة مصر فكان أول خليفة عباسى يزورها . وأصبحت مصر بعدئذ إسلامية .

فاذا قارنا بين موقف مصر فى ذلك العهد من غزاتها وبين موقف انجلترة لوجدنا أن الغزاة « الانجلوساكسون » والدانمركيين قد تتالوا على انجلترة . فلم يقابلوا بمقاومة كالمقاومة العنيدة الجبارة التى أبداها المصريون إلى حد أنه عندما وصلت السفن التى تقل الدانمركيين إلى نقطة من شاطىء انجلترة عام ٧٨٧ ميلادية ذهب عمدة أقرب قرية إلى تلك النقطة لاستقبالها وتقدم الدانمركيين ممتطياً صهوة جواده كأنه يؤدى واجباً وهو يجهل أنهم غزاة لبلاده . فقتلوه ![1]

١٠ — وعادت مناعة المصريين تظهر فى عهود الدولة الطولونية (٨٧٠ ـ ٩٠٥) والدولة الاخشيدية (٩٣٥ ـ ٩٦٩) والدولة الفاطمية (٩٦٩ ـ ١١٧١) والدولة الايوبية (١١٧١ ـ ١٢٥٠) ودولة المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) ودولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ـ١٥١٧) فامتدت حدود مصر المستقلة ذات السيادة الكاملة إلى مداها الطبيعى أى جبال طوروس شمالا ونهر الفرات شرقا وقد حدث أثناء عهد دولة المماليك البحرية أن ثارت قبائل الاسماعيليين على الحكم المصرى وعمد الصليبيون إلى محالفتها فرأى الظاهر بيبرس أن يستدعيهم للاقامة بمصر وكأنه كان واثقا

---

(١) A. Maurois : Histoire d' Angleterre P.63

من المناعة التاريخية العتيدة التى اختص بها الشعب المصرى وهى مناعة الاحتفاظ دائماً بالقومية المصرية والقدرة على إفناء كل دخيل فيها . إذ أن تلك القبائل لم تلبث أن امتزجت بالمصريين وضاع خبرها (١)

وقد رأى الأدب العربى عصراً من أزهى عصوره فى دولتى المماليك البحرية والجراكسة بل أن التاريخ يشهد بأن مصر قد حمت ذلك الأدب العربى من الفناء بايواء المضطهدين من المشتغلين به الذين لجأوا اليها من العراق وسوريا وغيرهما . ويكفى الدلالة على أن قومية المصريين قد أفنت فيها عناصر المماليك الدخيلة أن امراء أولئك المماليك — وهم من أصل تركى — قد شجعوا الأدب العربى والعلماء المصريين . ففى تينك الدولتين عاش بمصر وأنتج عشرات من أئمة الأدب العربى . كالبوصيرى صاحب « البرده » والقلقشندى صاحب «صبح الأعشى» وشمس الدين السخاوى صاحب « الضوء اللامع » وابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » والمقريزى صاحب « الخطط » وأبى الفداء صاحب « تقويم البلدان » والدميرى صاحب « حياة الحيوان »

وقد لجأ إلى مصر فى عهدى تينك الدولتين الامام ابن تيميه وابن قيم الجوزية . وابن خلدون (٢)

فاذا قارنا بين ما جرى بمصر فى تلك الفتره وما جرى بانجلتره لوجدنا أن الدانمركيين الذين غزوا شرق انجليا فى الجزائر البريطانية وجدوا حضارة

---

(١) هند اسكندر عمون — « تاريخ مصر » ص ١٥٤

(٢) عبد الرحمن الرافعى — « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » الجزء الأول ص ٤٥

، إلى تلك الجزائر من القارة الأوروبية لم تنبت نباتاً طيباً فأثروا فيها تاثيرا كبيراً . بينما الداتمركيون الذين ظلوا فى نورماندیا بفرنسا عندماوجدوا روما على مرأى من فرنسا تأثروا بالروح اللاتينية . فلما تولى جويوم ابن السفاح دوقية نورماندى فكر فى غزو انجلترا . وكان صاحب الحق فى ذلك التاج الملك ادوارد المعروف بادوارد الساذج والوريث الوحيد له هو هارولد فلما مات ادوارد انتخب هارولد ملكا لانجلتره وطالب جويوم بالتاج الانجليزى فأيده البابا وأخذ النورمانديون يستعدون لغزو انجلتره ولم يستدع الأمر أكثر من معركة واحدة فى الطريق بين لندن وهاستنجز تفوق فيها الانجليز بادىء الأمر فحارب جويوم وهو يتقهقر ثم تغلب عليهم وقتل هارولد وحاصر جويوم لندن وبدلا من أن يعلن نفسه ملكا انتظر إلى أن عرض عليه التاج فتظاهر بالتردد وفى عيد الميلاد من عام ١٠٦٦ توج الدوق النورماندى الغازى ملكا على انجلتره فى كنيسة وستمنستر !

وقد طبع النورمانديون الفرنسيون بطابعهم الخاص معظم المؤسسات التى تمتاز بها انجلتره إلى اليوم [١]

١١ — وعادت مناعة المصريين وقوة مقاومتهم للغزاه تظهر بعد فتح العثمانيين لمصر فقد ثاروا فى عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) عندما أمر السلطان بتعيين على باشا والياً على مصر بدلا من مصطفى باشا الذى كان المصريون يحبونه وأرغموا على باشا على العودة إلى الإستانة . ولم يمكنوه من دخول القاهره . فلم يجد السلطان بداً من النزول على إرادة المصريين وإبقاء مصطفى باشا

---

(١) A. Maurois: Histoire d'Angleterre P. 80—90

فاذا قارنا بين هذه الرجولة التى كانت تبدو فى موقف المصريين خلال ذلك العصر و بين ما كان يحدث فى أرقى الدول الأوروبية الحالية كانجلترة لوجدنا أنه منذ الغزو النورماندى لانجلترة عام ١٠٦٦ لم يتوج على انجلترة ملك واحد يجرى فى عروقه دم انجليزى صميم حتى وليت الملكة اليزابيث عام ١٥٨٨ أى أن انجلترة ظلت محكومة بملوك أجانب خلال خمسمائة عام وليس هذا الكتاب مجالا للاسهاب فى شرح الاضطراب السياسى والتعصب الدينى والفوضى التى كانت سائدة فى أنظمة الحكم بانجلترة وقتئذ ولكن يكفى أن أسوق دليلا واحداً على الفرق بين نظام الحكم فى مصر ونظامه فى انجلترة فى عصر واحد هو عصر تولى الملكة اليزابيث حكم انجلترة وتولى الملكة مارى ستيورات حكم اسكتلنده . فقد تلقت مارى ستيورات تعليمها بفرنسا لأن أمها هى إحدى أميرات بيت « جيز » الفرنسى فلما تولت حكم اسكتلنده ـ وكانت كاثوليكية ـ بدأت الثورات تنشب من المنتمين إلى المذهب البروتستانتى وكانت هذه الثورات تؤيدها اليزابيث ملكة انجلترة وقد بلغ تعصب رجال المذهب البروتستانتى ضد الملكة الكاثوليكية إلى حد أن أحد زعمائهم وهو ـ جون نوكس ـ نشر كتاباً أسماه « أول دقة على الطبلة ضد حكومة النساء الشيطانية »[1] فكانت الخلافات السياسية بين الملكتين توحى بها وتؤثر عليها عواطف الغيرة بينهما ، و بلغ من الفساد فى بلاط الملكة مارى ستيورات أنها رغم زواجها من الأمير Darnley أحد سلالة آل تيودور مثلها تدلهت حباً فى موسيقار إيطالى يدعى David Rizzio فتآمر

(١) John Knox : The Firsf Blast of the Trumpet against the monstruous Regiment of Women.

نبلاء البلاط مع دارنلى على قتل ذلك الايطالى وهو يتناول العشاء مع الملكة و بعد ذلك بثلاثة أشهر رزقت بطفل أصبح فيما بعد جاك السادس ملك اسكتلنده وجاك الأول ملك انجلتره وقيل إنه ابن ريزيو ثم تآمرت مارى على قتل زوجها فثار الشعب وقبض عليها وزج بها إلى السجن فى ادنبره والجنود يصيحون « احرقوا العاهرة ! » و بعد أن حوكمت قضى عليها بالاعدام فقال ابنها جاك — الذى لم ينس أن تنفيذ حكم الاعدام فيها سيجلسه على عرش انجلتره — « إن دينى كان يدفعنى دائماً إلى كره سلوكها » وقد نفذ حكم الاعدام فعلا فى ٨ فبراير عام ١٥٨٧

وما حدث فى بلاط ملكة اسكتلنده كان يحدث مثيله فى بلاط اليزابيث ملكة انجلتره فانها اصطفت كونت ايسيكس لرشاقته وتدلهت فى حبه . فكان يقسو عليها و يعاملها معاملة جافة . وطلب منها أن تعينه قائداً للحملة التى أرسلت لاخضاع الثورة الأرلندية عام ١٥٩٤ فخان واجبه كقائد وفكر فى أن يعود بجنوده لخلع الملكة [1]

١٢ — وتجلت مناعة المصريين وقدرتهم على إفناء كل شعب دخيل فى قوميتهم فى أواخر عهد العثمانيين بمصر . فان أهم الفرق العسكرية التى كان الاحتلال العثمانى يعتمد عليها كانت فرقة الانكشارية . فكان قائد هذه الفرقة هو قائد عام الحامية العسكرية العثمانية بمصر ومع ذلك فان تلك الفرقة — كغيرها من الفرق العثمانية — قد انتظم فيها كثيرون من المصريين فصارت لها صبغة مصرية . وسد المصريون مع مرور الزمن الفراغ الذى حدث فى الفرق العثمانية . أما الباقون فى تلك الفرق من

---

(١) Maurois : Histoire d'Angleterre p. 361—37

العثمانيين فقد اندمجت سلالتهم فى أهل مصر [١]

ولعل الدليل القاطع على فناء تلك العناصر التى تنتمى إلى أصل تركى فى القومية المصرية هو موقف على بك الكبير — وهو مملوك — من الدولة العثمانية عام ١٧٦٨ عندما نشبت الحرب بين تركيا وروسيا فقد أعلن استقلال مصر وعزل الوالى التركى وامتنع عن دفع الخراج ولم يكن ما فعله على بك الكبير بدعة فقد كان العثمانيون منذ دخولهم يشعرون بتفوق المصريين عليهم فى كثير من مظاهر الحضارة حتى أن السلطان سليم — بعد أن تم له غزو مصر — جمع رؤساء الصناعات المصريين ونقلهم إلى الاستانة ليعلموا الأتراك الحرف التى نبغوا فيها بمصر [٢]

والمؤرخون الذين توفروا على دراسة تاريخ ذلك العصر مجمعون على أن مصر، وإن اعتبرت من وجهة النظر القانونية ولاية تابعة للامبراطورية التركية، إلا أنها فى الواقع كانت مستقلة يحكمها نفر من مغتصبى السلطة [٣]

١٣ — وقد بدأت مقاومة المصريين للغزاة. وبدأ اصرارهم على الاحتفاظ بسيادتهم يتخذان شكلا عصرياً منذ غزو فرنسا بقيادة نابوليون بونابارت لمصر عام ١٧٩٨. وموقف المصريين من الحملة الفرنسية هو بدء الصراع الوطنى الحالى لاستكمال استقلال مصر وهو وثيق الصلة بالتطورات التى مرت بها الحركة الوطنية المصرية بعد ذلك.

وقد فطن بونابارت الى ماسوف تصادفه قواته من مقاومة المصريين فأصدر بمجرد وصوله الى الاسكندرية منشوراً كان قد طبعه على ظهر الباخرة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: «تاريخ الحركة القومية» الجزء الأول — ص ١٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٣

(٣) Charles Roux : Bonaparte Governer of Egypt P. 18 و Roux هو اكبر ثقة فى تاريخ نابوليون

Orient احدى بواخر الغزو باللغة العربية ذكر فيه :

«أيها المشائخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان داءاً يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » (١) .

ورغم هذا التملق الظاهر للمصريين فان الفرنسيين قد قوبلوا منذ وطئت أقدامهم أرض مصر بمقاومة شديدة .

فقد بدأ نزول القوات الفرنسية الى البر بجهة العجمى غرب الاسكندرية فى مساء ٢ يوليو عام ١٧٩٨ ولكن المصريين استعدوا لمقاومة الغزاة قبل نزولهم فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود المتطوعين للقتال ويجمعون جيشاً من العرب

وقد ظل السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية يدافع عنها بعد دخول الفرنسيين الى المدينة معتصما بطابية قايتباى ومعه فريق من الجند الى أن خارت قواه ورأى المقاومة عبثاً فسلم القلعة (٢)

وقد اعترف الفرنسيون بمقاومة المصريين فقرروا أن أهالى الاسكندرية دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال «مينو» بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة وأصيب الادجودان جنرال

---

(١) Charles Roux : Bonaparte Governer o Egypt P. 26. — والنص العربى منشور بالجبرتى وقد استبعدنا منه بعض الالفاظ التى ليست عربية

(٢) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق ص ١٧٥ و ١٧٩

ايسكال Escale بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى وقتل الجنرال ماس Mas وخمسة ضباط آخرون (١)

وقد دارت أول معركة بين الفرنسيين والمصريين بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليو وكان المصريون بقيادة مراد بك فلما انهزم تراجع الى القاهرة

ولكن مقاومة المصريين للغزاة ظلت على حدتها خلف الخطوط الفرنسية . فقد حدث ان كانت إحدى الكتائب الفرنسية بقيادة الجنرال «ديموى» Dumuy مارة بمركز كفر الدوار فهاجمها المصريون وتغلبوا عليها . وتبين ديموى روح العداء التى كان يبديها المصريون فكتب فى تقريره « إنى آسف كثيراً لأنى لم أجد فى جولتى هذه مصرياً واحداً يحمل الشارة الفرنسية » (٢)

وعاد المصريون بقيادة مراد بك فالتقوا بالفرنسيين فى مركز امبابه يوم ٢١ يوليو فلما انهزم جيش مراد بك فر الى الجيزة وترك أمر المقاومة بين يدى العناصر المصرية الصميمة التى كانت بالقاهرة . أى فى الشاطىء الشرقى للنيل

وفى نفس اليوم الذى دارت فيه معركة امبابه أصدر الجنرال كليبر الذى تركه بونابارت لقيادة الفرنسيين بالاسكندرية أمراً بالقبض على محمد كريم حاكمها الوطنى ثم أعدم يوم ٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ بعد أن رفض دفع الغرامة التى فرضها عليه الغزاة فمات شهيد بطولته . ولا شك أنه كان منظم مقاومة الغزاه وقد حملوا رأسه بعد قطعها وطافوا

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ من رسالة الجنرال Berthier الى وزارة الحربية الفرنسية فى ٦ يوليو سنة ١٧٩٨

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩

بها شوارع القاهره ومعها هذه الكلمات « كريم حاكم الاسكندرية الذى أدين لأنه حنث بيمين الولاء للجمهورية الفرنسية . وهكذا سيعاقب جميع الخونة »[١]

أما فى القاهره فقد استعد أهلها لصراع الغزاه ابتداء من يوم ١٧ يوليو و بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى مقدورهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يملكه واتجهوا جميعاً إلى بولاق فلم يبق فى القاهرة رجل لم ينتقل إلى بولاق[٢] وكان منظم المقاومة هو السيد عمر مكرم

وقد اعترف الفرنسيون بأن نصف عدد الجيش المصرى الذى قاتلهم فى امبابه كان من الفلاحين وأنهم دافعوا دفاع الأبطال و رفضوا التسليم فماتوا قتلا وغرقاً[٣] مما يقطع فى الدلالة على مدى مساهمة العنصر المصرى الصميم فى المقاومة على شاطىء النيل

ولم يهدأ للفرنسيين بعد ذلك بال بل استمرت مقاومة المصريين لهم مستعرة متأججة ففى ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ خرج فرسان قبيلة العائذ بالشرقية وهاجموا الكتيبة التى كان يقودها الجنرال رينيه وظلت مقاومة مديرية الشرقية مستمرة الى آخر ذلك العام[٤] فاضطر نابوليون الى القبض على عبد الرحمن أباظه أخ سليمان أباظه زعيم عرب العبايدة .

ورغم تلك المقاومة العنيدة فان نابليون ظل يتملق المصريين فدعا

---

(١) Roux : Bonaparte Governer of Egypt. P. 28 et 50

(٢) الجبرتى — الجزء الثالث

(٣) Berthier : Relation des Campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

(٤) Roux — المرجع السابق . ص ٤٨

الى إنشاء الديوان العـام . ورأى تأليفه من ثلاثة من العلمـاء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية ومحافظة وقد اجتمع ذلك الديوان يوم ٥ أكتوبر عام ١٧٩٨ وافتتحه نابوليون بخطاب قال فيه

« ان مصر بلاد لانظير لها وهى أخصب البلاد . و إن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخـذت عن أجداد مصر الأول »[١] . وقد أختير الشيخ الشرقاوى بالانتخاب السرى رئيساً للديوان ولكنه ظل مواليا لحركة المقاومة التى نظمها المصريون ضد الغزاة . إلى حد أن نابوليون استدعاه يوم أول سبتمبر عام ١٧٩٨ ووضع بيـده وساماً فرنسيا على كتفه فلم يكن من الشيخ الشرقاوى إلا أن ألقى به إلى الأرض واستقال من رئاسة الديوان العام رافضاً الوسام الفرنسى وآبياً التعاون مع الغاصب[٢] مما اضطر نابليون إلى إلغاء الأمر الصادر بوجوب وضع ذلك الوسام

وثارت القاهرة فى يوم ٢١ اكتوبر عام ١٧٩٨ — وهو نفس اليوم الذى هاجم فيه أهل مديرية الشرقية قوات الجنرال رينييه مما يدل على تنظيم حركة المقـاومة — وكانت الدعوة الى الثورة تختلط علناً بآذان المؤذنين فى المساجد فيدعون إلى الله والى الثورة على المـآذن صباح ومساء »[٣]

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — المرجع السابق . ص ١٠٦ و ١٠٧

(٢) وافق Roux فى كتابه Bonaparte : Governer of Egypt على هذه الرواية وان ذكر أن الجبرتى أضفى طابعا مسرحيا عليها وأضاف Roux إليها أن الشيخ السادات قبل الوسام من نابليون وألقاه بعد خروجه — ص ٦٦

(٣) De la Jonquière : L'Expédition d'Egypte

وكان الجامع الأزهر هو مركز الثوره فهاجم المصريون الفرنسيين ووضعوا المتاريس فى الطرق وعينوا حراساً على بابى المدينة الرئيسيين وهما باب الفتوح وباب النصر وحاولوا قطع المواصلات بين النقط المحصنة التى يحتلها الفرنسيون . وقد قتل فى اليوم الأول الجنرال Dupuy قائد حامية القاهره وقتل فى اليوم الثانى — أى يوم ٢٢ اكتوبر — الكولونيل Sulkowski ياور نابوليون الخاص (١)

ولما استعمل الفرنسيون منتهى العنف قمعت ثوره القاهرة وقبض على المشائخ اسماعيل البراوى ويوسف المصيلحى وعبد الوهاب الشبراوى وسليمان الجوسقى وحكم باعدامهم ونفذ حكم الاعدام يوم ٤ نوفمبر عام ١٧٩٨

وظلت مقاومة المصريين مستمرة رغم قمع ثوره القاهره . فقد كتب نابوليون فى ١٣ ديسمبر عام ١٧٩٨ يقول إنه اعتقل الشيخ سليمان الشواربى لأنه اتهمه بأنه كان يحرض أهالى مديرية القليوبية على الثوره أثناء تأججها فى القاهره وقد أعدم فعلا فى ميدان الرميلة

وامتدت الثورة الى مديرية المنوفية فهجم الأهالى على الضابط Julien ياور نابوليون فقتلوه وقتلوا معه خمسة عشر جنديا فرنسيا فكان عقاب القرية إحراقها حتى لم يبق فيها بيت قائم (٢)

وهاجم أهل المنوفية الجنرال Fugières فلم يستطع أن يخمد الثـ إلا بعد عناء شديد . وقد اشتركت النساء المصريات فى ثوره المنوفية ولن يهاجمن الجنود الفرنسيين بكل شجاعة

---

(١) Roux — المرجع السابق — ص ١٨٥

(٢) Roux — المرجع السابق — ص ٤٧ وقد ذكر عبد الرحمن بك الرفاعى فى كتابه أن قتل هذا الضابط حدث فى ناحية « علقام » بمركز كوم حماده استناداً إلى مراجع أخرى

وقد ظهرت أثناء تلك الثوره شخصية الزعيم « أبو شعير » الذى كان يقطن قرية « عشما » بمركز شبين الكوم والذى قاوم الجنرال لانوس Lanusse مقاومة عنيفة لم تتوقف إلا بعد قتله شهيد بطولته يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٧٩٨ . وقد اعتبر الجنرال لانوس موته نصراً باهراً واعترف فى رسالة إلى بونابرت بالخسائر التى تكبدها الفرنسيون منه .

وقامت مديرية الغربية بنصيبها فى الثورة المصرية العامة التى نشبت لطرد الفرنسيين من مصر . ففى يوم ٩ أكتوبر عام ١٧٩٨ هاجم أهلها الكتيبة التى كان يقودها الكولونيل لوفيفر وظلت المعركة دائرة بين الفريقين أربع ساعات . وقد خشى بونابارت أن يجيب طلب قواده وهو إنزال العقاب بأهل المدينة لما لها من حرمة لدى المسلمين .

واشتركت مديرية الدقهلية فى الثوره فهاجموا الفرنسيين فى يوم ١٠ أغسطس عام ١٧٩٨ . وكان عدد الجنود الفرنسيين مائة وعشرين فلم يبق منهم حياً إلا جندى واحد

وتزعم حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة حركة المقاومة فى دمياط وكان نفوذه يعود إلى سيطرته على صيادى الأسماك فى تلك المنطقة الذين كانوا يملكون نحو خمسمائة مركب . وقد هاجم الحامية الفرنسية بهذا الأسطول ليلة ١٦ سبتمبر عام ١٧٩٨ فرسا فى « غيط النصارى » شرق دمياط وقد بلغ من شدة هذا الهجوم المصرى وتنظيمه أن الجنرال Andreossi كتب إلى بونابارت يقول إن نظام المصريين العسكرى يجعله يميل إلى تصديق ما كان قد ذاع من قبل عن قرب وصول مدد من سوريا إلى حسن طوبار .

وما حدث فى الوجه البحرى — وسقناه على سبيل المثال على مقاومة

المصريين العنيدة للفرنسيين — حدث مثله فى كل مديرية ، وفى كل مركز . بل فى كل قرية من قرى الوجه القبلى من الجيزة إلى أسوان . حتى ذكر المؤرخون الفرنسيون أن المصريين من كل طبقة وكل لون قد دافعوا عن أرض مصر ضد الغازى ولم يكونوا يسلمون فى أى شبر من تلك الأرض إلا أمام القوة المتفوقة (١)

من هذا كله يتضح بجلاء أن سيادة مصر لم تتأثر بالغزو الفرنسى . لأن مقاومة المصريين لم تقف منذ نزل الفرنسيون أرض مصر . كما أن الظاهرة التاريخية التى بدت فى فناء الغزاة لمصر فى القومية المصرية بدت أيضاً فى فناء بونابارت فى هذه القومية . وفى اعتزامه الأخذ بالمظاهر المصرية . ففى أثناء اتصالاته اليومية بالمصريين كان يحافظ على العادات المصرية ويتبع الطريقة التى يتبعها المصريون فى حياتهم وكان يقابل زواره محافظا على قواعد السلوك المصرية فيجلس وسطهم ويتابع مناقشاتهم متغلباً على ما كان معروفا عنه من نفاد الصبر وكان يتحدث اليهم فى أسلوب مشابه لأسلوبهم . مستعيراً من لغتهم التعبيرات المميزة لهذه اللغة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن نابوليون فكر فى أن يرتدى الثياب التى كان يرتديها المصريون إذ ذاك . وقد ارتداها فعلا بمناسبة اعتزامه استقبال أعضاء الديوان ولكنه عدل عن ارتدائها فيما بعد بناء على نصيحة Tallien مما يرمز إلى ميله نحو التطبع بالطابع الشرقى والتأقلم مع الجو المصرى (٢)

---

(١) Charles Roux - P. 24 .

(٢) Roux — المرجع السابق — ص ٦٤ ، ٦٥ . وقد ذكر المؤلف أن بونابارت كان يستشير فى هذا الشأن اثنين من المستشرقين الفرنسيين هما ماجالون Magallon =

وأكثر من هذا وذاك . فقد ثبت أن بونابارت قد فكر فى اعتناق الاسلام تفكيراً جدياً . فكان يحمل معه أثناء غزوه لمصر ترجمة فرنسية للقرآن . وقد صرح بأنه لو اعتنق الدين الاسلامى فان جيشه سوف يتبعه فى اعتناق دين المصريين . وأنه لم يعقه عن تنفيذ تلك الفكرة إلا اعتراضان اثنان فقط . هما ما يحتمه الدين الاسلامى من ختان الرجال ومن تحريم شرب النبيذ . وقد بلغ اعتقاده بسمو دين المصريين إلى حد أنه وعد ببناء جامع شاسع الأرجاء بحيث يسع جميع رجال جيشه (١)

ولكن رغم هذا كله ثار المصريون على بونابارت لأنه أجنبى . وصحت نبوءة الكاتب الفرنسى فولنى Volney الذى كتب فى عام ١٧٨٨ — أى قبل الحملة الفرنسية بعشرة أعوام — يقول « لكى يستقر قرارنا فى مصر يجب أن نشن ثلاثة حروب . الأولى ضد انجلترا . والثانية ضد الباب العالى والثالثة — وهى أشد هذه الحروب الثلاثة وأصعبها — ضد المصريين من سكان مصر » واقتنع بونابارت بصحة هذا الرأى بعد أن تم له غزو مصر فكتب يقول « أن نبوءة فولنى كانت حقة فقد تطور موقفنا فى مصر إلى مشكلة عويصة . فاما أن نجلو وإما أن نسالم الآراء الدينية السائدة فى مصر لئلا نوضع بين أعداء الاسلام . والتجربة قد أثبتت أنه لكى نوضع بين أصدقاء الاسلام فانه لا يكفى أن نعلن من جانبنا صداقتنا له » (٢)

وقد ثبتت حيوية الشعب المصرى ثبوتا قاطعاً بإصراره على المقاومة رغم تغلب الفرنسيين على المصريين وإخمادهم الثورات التى قامت خلال

= وفانتور ده بارادى Venture de Paradis, كما ذكر أن واقعة ارتداء بونابارت للثياب المصرية رواها الضابط Detroye من سلاح المهندسين الملحق بقيادة الجنرال Caffarelli

(١) المرجع السابق — ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) المرجع السابق — ص ٧٠ و ٧٣ .

النصف الأخير من عام ١٧٩٨ . إذ أن المصريين عادوا إلى المقاومة فى العام التالى فثارت بلدة بردين بمديرية الشرقية فى أول مارس سنة ١٧٩٩ والتحم أهلها بكتيبة من الجيش الفرنسى . وثارت بلده كفور نجم وانضمت إلى أمير الحج مصطفى بك فذهب مع أهلها إلى ميت غمر وهاجموا سفن الفرنسيين يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ . وأراد الفرنسيون الثأر من بلدة كفور نجم فالتحموا بأهلها يوم ٥ يونية سنة ١٧٩٩ ولكن المصريين انتصروا على الفرنسيين فى هذه الموقعة . والتحم المصريون بالفرنسيين فى دمنهور يوم ٢٤ أبريل سنة ١٧٩٩ فقتل المصريون جميع رجال الحامية الفرنسية وأراد الفرنسيون أن يثأروا فدارت موقعة ببلدة دمنهور بمديرية البحيرة يوم ٣ مايو سنة ١٧٩٩ انتهت بانتصار المصريين .

ولم تقف مقاومة المصريين عند حد إلا بسبب توقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ التى تعهد فيها الفرنسيون بالجلاء عن مصر فلما نقضوا شروط تلك المعاهدة عادت مقاومة المصريين فثارت القاهرة للمرة الثانية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ثورة امتدت إلى ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ . وكان يتزعم هذه الثورة مصطفى البشتيلى . و بلغ عدد الثوار خمسين ألفاً . قاموا بالمعجزات أثناء تلك الثورة الى حد أنهم «صنعوا القنابل من حديد المساجد وفعلوا ما يصعب تصديقه ، ذلك أنهم صنعوا المدافع »[1]

و بعد هذه المقاومة العنيدة اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر نهائياً بمقتضى الاتفاقية المحررة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١

واستقرت الحالة فى مصر بعد أن ولّى المصريون عليهم محمد على

---

(١) Martin « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر » — وعبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » الجزء الثانى ص ١٥٦ .

والياً بارادتهم . فاستردوا بذلك سيادتهم . رغم إرادة الدولة التى كانت — من الوجهة النظرية — تعتبر مصر ولاية تابعة لها وهى الدولة العلية . ولكنهم عادوا إلى المقاومة عندما هددت تلك السيادة بالخطر . وذلك لما اتفقت الحكومة التركية مع الحكومة الانجليزية على عزل محمد على باشا الذى اختاره الشعب المصرى . وكان من آثار ذلك الاتفاق تأليف جيش بقيادة محمد بك الألفى ـ أحد أمراء المماليك ـ لمحاربة محمدعلى . وقد وصل ذلك الجيش إلى دمنهور فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٦ فهب المصريون للدفاع عن سيادتهم . وحاصر جيش محمد الألفى دمنهور فأبدى أهلها أقصى ضروب الشهامة والجلد وكان دفاع أهلها وثباتهم من أهم الأسباب التى أحبطت اتفاق انجلترا وتركيا على خلع محمد على (١)

وعاد المصريون إلى المقاومة بعد فترة وجيزة بمجرد أن تبينوا أن سيادتهم معرضة للخطر . فقد حاولت انجلتره غزو مصر فاتفقت مع محمد الألفى . ونزلت الجيوش الانجليزية فى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر ثم زحفت إلى رشيدوكان محافظها إذ ذاك على بك السلانكلى . وأسرع محمد على باشا فأرسل اليه و إلى غيره من حكام الموانى المصرية يعرض استعداده لارسال المدد ولكن أهالى رشيد أكدوا أنهم قادرون وحدهم على صدالغزاة وقد تغلبوا فعلا على الجيش الانجليزى الزاحف فى ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ فكان ذلك النصر المصرى إيذانا بفشل الحملة الانجليزية

وعاد الانجليز يحاولون التغلب على مقاومة المصريين فالتقوا بهم فى الحماد يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٠٧ وكان الانجليز بقيادة الجنرال ستيوارت

---

(١) De Vaulabelle — « مصر الحديثة » وعبد الرحمن الرافعى « : تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث ص ٣٣ .

ولكن المصريين تغلبوا فى الحماد كما تغلبوا فى رشيد . واضطر الانجليز إلى توقيع الاتفاق الذى تحرر بين الجنرال Scherbrook وبين محمد على فى دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وهو الذى تعهدوا فيه بالجلاء عن مصر .

٦ — وعاد المصريون يقاومون مقاومتهم التقليدية العنيفة لكل اعتداء على سيادتهم عندما ضرب الأسطول الانجليزى ميناء الاسكندرية بقنابله يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ويكفى الدلالة على مبلغ استماتتهم فى هذه المقاومة ملاحظة تفوق القوات الانجليزية الغازية على قوات الجيش المصرى إذ ذاك وهى تكاد لا تقارن بالمعدات الانجليزية العصرية التى أقبل بها الأميرال بوشان سيمور ومع ذلك فان الجنود المصريين الذين كانوا مكلفين باطلاق مدافع قلاع الاسكندرية كانوا يؤدون واجبهم فى العراء دون تفكير فى الموت الذى كان يهددهم فى كل لحظة إذ لم تكن تحميهم دروع أو متاريس ومع ذلك فانهم كانوا يستمرون فى أداء واجبهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح أبطال سقطوا فى ساحة الشرف ثم بعثوا مرة أخرى ليكافحوا العدو وقد أدوا جميعاً واجبهم من جنود ورجال ونساء على أتم وجه ولم تكن تستحثهم إلا عاطفة الوطنية وإلا الحماسة التى تتأجج فى صدورهم مع أن أحداً لم يفكر فى آلامهم من قبل [1] ولعل من أروع ما تميزت به مقاومة المصريين للغزاة عام ١٨٨٢ اشتراك النساء المصريات اشتراكا فعالا فى تلك المقاومة إلى حد جعل الأجانب — وفى مقدمتهم المحامون الانجليز الذين دافعوا عن احمد عرابى باشا — يقررون أن عرابى وجد فى سيدات مصر أكبر معين على ثورته فقد ساعدنه منذ

---

(١) John Ninet : Orabi وعبد الرحمن الرافعى « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٣٦٢ .

الخطوات الأولى مساعدات قيمة وظللن يقدمن تلك المساعدة حتى بعد أن فقد آخر أمل فى انتصاره بل إن أميرات الأسرة الخديوية كن يعطفن عطفاً كبيراً على عرابى . ففى غداة يوم ضرب الاسكندرية بالقنابل أعلن فى الوقائع المصرية أن والدة الخديوى وابنته الأميرة جميلة قد تبرعتا بكثير من الجياد والعتاد والهدايا إلى جيش عرابى وتألفت عقب ذلك عدة جمعيات من السيدات المصريات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى الذين أصيبوا فى موقعة كفر الدوار والاستعداد لمواجهة المواقع التالية إلى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها (١)

وقد أدهشت مقاومة المصريين للغزو الانجليزى جميع الذين اتصلوا بذلك العصر عن كثب إلى حد أن أحدهم قرر أن من الصعب على الرجل الانجليزى أن يفهم كيف أن العقلية المصرية تصبح جبارة ومنتجة فى ظل الارهاب وتحت سوط العذاب أكثر من أى وقت آخر (٢)

وأخيراً عادت مقاومة المصريين تتجلى عقب إعلان الهدنة التى أعقبت الحرب العالمية الماضية عندما تبينوا أن الوعود التى قطعها ساسة الدول التى كسبت تلك الحرب بشأن حق الأمم الصغيرة فى تقرير مصيرها لن تنفذ فثاروا ثورتهم عام ١٩١٨ واستمرت تلك الثورة إلى أن صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ من جانب انجلترة باعلان استقلال مصر فلم يرضوا به لأنه لم يحقق كل آمالهم فى السيادة الكاملة واستمرت مقاومتهم إلى أن وقعت معاهدة التحالف والصداقة مع انجلترة فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ .

هذه خلاصة موجزة للفترات التاريخية التى تجلت فيها مقاومة المصريين

---

(١) Broadly : How we defended Orobi ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٣٤٦ الصادر فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .

(٢) Broadly — المرجع السابق — ترجمة مجلة « الجامعة » العدد ٣٤٨ الصادر فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٨ .

للغزاة الذين مروا بوطنهم . تقطع فى الدلاله على أن مصر لم تكن — على خلاف الخرافة الذائعة — مستعمرة فى أية مرحلة من مراحل تاريخها — إلا فى عصر الرومان — وعلى أن المصرى لم يحن هامته ، ولم يقبل الضيم ، ولم يرض بذل الاستعمار ، ولم يقبل أن تمس سيادته على أرضه طوال تاريخه المجيد[١] ولعل خير رد على الذين يتبرأون من مصريتهم هو رد البارون شتاين Stein المفكر الألمانى على قيصرة روسيا بعد تقهقر نابليون من روسيا فقد حدث عقب ذلك التقهقر أن قالت القيصرة — وهى من أصل ألمانى إذ ولدت فى وايتمبرج — بعد العشاء فى قصرها بسان بطرسبرج « الآن إذا تمكن جندى فرنسى واحد من أن يتخطى الحدود الألمانية فاننى سأخجل من أن أسمى ألمانية » فنهض البارون شتاين واحمر وجهه حتى صبغت الحمرة عنقه وانحنى ثم قال « إن جلالتكم قد ظلمتم ظلماً عظيما بالتفوه بمثل هذه الألفاظ عن شعب عريق وفى وشجاع لكم الشرف فى أن تنتسبوا إليه كان يجب أن تقولوا « إننى لست خجولة من الشعب الألمانى بل من إخوتى وأبناء أعمامى الأمراء الألمان : فلو أنهم أدوا واجبهم لما استطاع جندى فرنسى واحد أن يصل إلى نهر الألب أو الأودر ، ولما استطاع بالتالى أن يعبر نهر الدنيستر »[٢]

فالمصرى لم يقصر قط فى أداء واجبه على مدى التاريخ . وإنما الذى قصر فى أداء ذلك الواجب أحيانا هم بعض قادته . وهذا ما سوف نتلافاه فى البرنامج الذى نعرضه فى هذا الكتاب .

---

(١) من الباحثين المصريين الذين تنبهوا إلى هذه الحقيقة التاريخية المرحوم اليوزباشى حسن على الأضليجى من سلاح المهندسين الملكى المصرى فى دراسة له عن « البحر الأبيض المتوسط » بمجلة « الجيش المصرى » العدد الرابع المجلد الثالث ص ٥٣٣ .

(٢) Emile Ludwig : Genius and Character من دراسة عن Stein .